عرض وتحليل كتاب

إنسانيات محمد

للأستاذ خالد محمد خالد

بقلم الأستاذ محمد لبيب البوهى

الأستاذ خالد محمد خالد كاتب إسلامى مبدع . . ومهما اختلفت وجهات النظر فى بعض ماجاء بكتابه الأول . . فإن له خصائصه التى يتميز بها . . وله معجبون كثيرون يحبون أن يقرأوا له . . ومن هذه الخصائص عصرية الأسلوب . . والاحتفال بالألفاظ المشرقة التى يلتمع ضياؤها من ثنايا كتابته . .

وإننى لمدين له بكثير من البهجة التى ملأت بها بعض ليالى رمضان حين عكفت على كتابه البديع الأخير إنسانيات محمد . .

وقبل أن أتناول الموضوع بالعرض . . أشير إلى روعة مثل هذه الأساليب العصرية فى دفع طبقات جديدة من القراء إلى الكتب الدينية إن الأستاذ خالد محمد خالد تناول الموضوع كقصة مقسّمة إلى فصول حول إنسانيات الرسول . . وجعل عناوينها على التوالى :

الرحمة مهجته .. العدل شريعته .. الحب فطرته . . السمو حرفته . . مشاكل الناس عيادته .

* * *

يقول المؤلف إن الرحمة فى أخف تكاليفها . . وفى أيسر صورها . . تكنس من طريق المجهول كل الكوارث المخبوءة . . وتغسل عن الإنسان كل أوزاره وتضع عنه كل أثقاله . . وأن كل صنيعة مهما تكن يسيرة . تدفع عن صاحبها وبالا كبيراً . . . وكما قال الرسول :

صنائع المعروف، تقى مصارع السوء

ويسوق لذلك مشهداً تتجلى فيه الرحمة .

« أتى الله بعبد من عباده ، كان قد آتاه مالا . . فقال له : ماذا عملت فى الدنيا ؟ ؟ قال : يارب . آتيتنى مالا ، فكنت أبايع الناس ، وكان من خلقى الجواز - أى التسامح - فكنت أيسر على الموسر ، وأنظر المعسر ، فقال الله تعالى : أنا أحق بذلك منك . . تجاوزوا عن عبدى » .

« إن الرسول يركز الرحمة تركيزاً شديداً كلما اشتدت الحاجة إليها « من يسر على معسر فى الدنيا يسر الله عليه فى الآخرة والله فى عون العبد . ما كان العبد فى عون أخيه . . » .

ويفلسف الرسول العظيم الرحمة فلسفة تسمو بها فوق الفضائل الإنسانية كلها - وتجعل كل عمل رحيم عبادة من أزكى العبادات . . وأعظم رحمة هى تحرير الناس من الخوف قدر المستطاع . . إن الخوف غول يلتهم سكينة الناس وأمنهم . .

أما الخوف من الله فما كان محمد وهو يدعو إلى فضائل يشق على الأنفس فعلها أن يستبعده من بين وسائل تربيته . سيما فى تلك الأزمان البعيدة التى كان الخوف فيها من أهم وسائل الزجر والتربية والتقويم .

ولكن محمداً استطاع أن يقيم إلى جوار التخويف من عذاب الله . الرجاء فى رحمته . .

« أذنب عبد ذنبا ، فقال : اللهم اغفر لى ذنبى . فقال الله تبارك وتعالى : علم عبدى أن له ربا يغفر ذنبه ؟ . . قد غفرت له . . ثم عاد فأذنب فقال أى رب : اغفر لى ذنبى ، فقال تبارك وتعالى : علم عبدى أن له ربا يغفر ذنبه ؟ - قد غفرت له - ثم عاد فأذنب ذنبا فقال أى رب : اغفر لى ذنبى فقال تبارك وتعالى : علم عبدى أن له ربا يغفر ذنبه . قد غفرت لعبدى . فليفعل ما شاء . . » .

إن الإنسان الذى صوره الرسول فى هذا الحديث لم يكن فى رجعه المتكرر للخطيئة سوى صورة لنا جميعاً . . صورة للضعف البشرى الذى يسلمنا لأهواء النفس .

وإنه ليتقزز من الخطأ .

ويقول رب . اغفر لى . . ثم يعاود الهوى . . ثم يعود للرشد وهكذا رحلة دائبة بين الخير والشر . . ومع هذا فإن مجرد إحساسه بالخطأ . يسلكه فى رحمة الله .

وإن الرسول عليه السلام . ليشير

إلى باب عظيم من أبواب الرحمة . حقوق الجار فيقول « وإذا استعانك أعنته ، وإذا استقرضك اقرضته ، وإذا افتقر عدت عليه ، وإذا مرض عدته ، وإذا أصابه خير هنأته ، وإذا أصابته مصيبة عزيته ، وإذا مات اتبعت جنازته ، ولا تستطل عليه بالبنيان فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ، ولا تؤذه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها . وإن اشتريت فاكهة فاهد له ، فإن لم تفعل فأدخلها سراً ، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده ... » .

* * *

إنها إنسانية القلب الكبير . . إن محمداً يتعقب قسوة القلب فى كل مجال لها . . وهو حريص على أن يحرر الأحياء من مخاوفهم ... وهو يرسم الطريق للمجتمع المتعاون المتجاب وينفى عنه كل مايفت من عضده وينهى عن ترويع الإنسان أخاه ولا يأتفه مظاهر الترويع .

ويطارد من أجل ذلك . النميمة .. والغيبة . . والبهتان .

« شرار عباد الله ، المشاءون بالنميمة . . المفرقون بين الأحبة . . الملتمسون للبرآء العيب .

ولا تقف رحمته عن الإنسان . . إنه يستمع إلى شكاة الحيوان بالإحساس الرحيم المرهف وكأنما هذه الشكاة الصامتة من الحيوان نداء النجدة لكل طالب رحمة .

« قرصت نملة نبيا من الأنبياء . . فأمر بقرية النمل فحرقت ، فأوحى الله تعالى إليه : أن قرصتك نملة . : أحرقت أمة من الأمم تسبح ... » .

إن الإنسانية السامية تسمى جماعة النمل أمة . . أمة تهديها غريزتها إلى أن لها بارئا خلاقا فهى تسبح عبده .

* * *

بل إنه حين يأمر بقتل حشرة سامة تفترس الناس بلدغها . . يجعل المهارة فى قتلها مرادفة للرحمة بها . ويرجو الثواب من ربه لمن يجهز عليها فى غير إيلام لها .

« من قتل وزغة فى أول ضربة . كتبت له مائة حسنة . . وفى الثانية دون ذلك .. وفى الثالثة دون ذلك .. »

هذه لمحات مشرقة من رحمة النبى بالناس وبالأحياء جميعا .

* * *

وفى باب العدل يقول المؤلف . .

إن التمايز أشد الظلم وقاحة فالذى يزعم لنفسه مكانا خاصا فوق الناس . إنما ينتحل ماليس له بحق .. وإنما يتعبدهم لشهوة الصلف والغرور الكاذب . ثم هو قبل هذا وبعد هذا يضع نفسه حيث تغلبه نفسه . . وحيث يقوده هواه إلى ارتكاب كل الآثام الباغية التى هى افراز حتمى لإحساسه الخاطئ بالتمايز :. وبالاستعلاء .. وبالهيمنة ..

ومحمد الإنسان يعلم هذا . . وليس فى طبيعته إلا الهيام الشديد بالعدل والإيمان به كفضيلة . . وكضرورة .

من أجل هذا طهر نفسه تطهيرا من كل شعور بالتعالى . . وتنازل فى نبل عظيم عن كل امتيازات تفوقه العظيم فى سلوكه كرسول وقائد ، ينبذ التمايز ويرفضه . .

كما أنه يرفض التمايز أيضاً فى سلوكه كصديق فهو يشارك أصحابه فى إعداد الطعام ويخص نفسه بجمع الحطب .

يقول له أعرابى . . اعدل يا محمد

فيبتسم ابتسامة المتهلل ويجيب الرجل

« ويحك ، فمن يعدل إن لم أعدل »

لايقول هذا متباهيا ولا محتالا .. بل مذكرا الناس بحقهم فى أن يتوقعوا منه أقصى فرائض العدالة - وفى أن يحاسبوه عليها إذا عن لهم ما يقتضى الحساب . .

انه ينظر إلى الظلم كخطيئة لا تعدلها خطيئة أخرى فى خطايا البشر فيقول:

« دعوة الظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء . . ويقول الرب : وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين . . . . »

والظلم عند محمد يأكل فضائل الظالم . . ويرعى حسناته كما ترعى النار الهشيم . إن الظالم نفسه بعض ضحايا ظلمه .. إن الظالم بعمله هذا يظلم نفسه والظلم يتخذ أشكالا شتى .

ظلم بالفعل . . كالأعمال التى فيها إهدار للحقوق .

وظلم بالقول . . كالإهانة . . والإشارة النابية .

وظلم بالشعور .. كالحسد والحقد .

ومحمد عليه الصلاة والسلام . . يحيط بهذه الأشكال جميعاً ويكافحها فى ولاء عظيم للعدل .

والظن أيضاً نوع من الظلم . . وهو أكذب الحديث . .

« إنك إن اتبعت عورات المسلمين أفسدتهم » .

والظن عند النبي لا يشكل آفة سلبية . بل هو آفة إيجابية لها فى الإثم والعدوان دور إيجابى .

* * *

وفى حديث المؤلف عن الفطرة المحمدية فى الحب يقول :

محمد محب ودود . . أطاع الله كثيراً لأنه أحبه كثيراً . .

وبر الناس كثيراً لأنه يحبهم كثيراً . . وأقبل على الفضائل والواجبات جذلان مبتهجا . . لأنه أحبها . . وأحب من كل قلبه الطهر والنقاء وهذا هو سر عظمته . . إنه أحب عظائم الأمور . . ومارسها فى شغف عظيم . . ممارسة محب مفطور . . لا ممارسة مكلف مأمور ووراء كل سلوكه ومواقفه وحياته نجد الحب .

إذا سجد وأطال السجود . . وسمع وجيب قلبه . . ونشيج تضرعه وبكائه ، فذاك لأنه فى غمرة شوق جارف ، ومحبة آخذة .

ولهذا كان ينتظر الصلاة على شوق . فإذا جاء ميعادها قال لمؤذنه : أرحنا بها . لا أرحنا منها .

والواجبات عنده هواية . . ذلك لأن الحب ليس عنده شهوة بل هو فطرة

ولذلك لم تقع عليه عين إلا أحبته . . وكان يجعل الحب أساس الإيمان

« والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا . ولا تؤمنوا حتى تحابوا ... »

والحب عند النبي يمثل القاعدة الراسخة لسلوكه . . وحين تفرض عليه الظروف القاهرة أن يبغض بعض الناس . فإن هذا البغض لا ينفصل عن قاعدة الحب ذاتها

فهو مثلا يحب الحق وهذا الحق يقتضيه أن يبغض الباطل وهو يحب العدل وذلك يتطلب منه أن يكره الظلم

على أن بغضاءه هذه لم تكن ذات أصالة فى طبيعته ولا فى سلوكه بل مجرد سحابة رقيقة عابرة

* * *

تلك لمحات خاطفة من كتاب قيم . . لم نستطع أن نثبت منها إلا بعض ما يسمح به المجال . . إنه كتاب يحوى بين دفتيه ثروة من المعانى التى تعمق فى نفس الإنسان صلته بمحمد الإنسان العظيم . . والمشرع العظيم . والعادل العظيم . . والمحب العظيم

ذلك هو ديننا

روت كتب الصحاح أن النبي صلوات الله وسلامه عليه ، وعظ الناس يوما ، فذكر القيامة وأهوالها ، فرق الناس وبكوا ، وطاف بالقلوب طائف من الزهد فى الدنيا ، فاجتمع عشرة فى بيت عثمان بن مظعون وهم :

أبو بكر . وعلى ، وابن مسعود ، وعبد الله بن عمرو بن العاص وأبو ذر ، وسالم مولى أبى حذيفة ، والمقداد بن الأسود ، وسلمان الفارسى ، ومعقل بن مقرن ، واتفقوا على أن يترهبوا ويلبسوا المسوح ، ويصوموا الدهر ، ويقوموا الليل ، ولا يناموا على الفرش ولا يأكلوا اللحم والودك ، لا يقربوا النساء والطيب ، فبلغ ذلك رسول الله صلوات الله وسلامه عليه . فقال لهم :

ألم أنبأ أنكم اتفقتم على كذا وكذا ؟ قالوا : بلى ، وما أردنا الا خيرا فقال عليه السلام :

إنى لم آمر بذلك ، ثم قال : إن لأنفسكم عليكم حقا ، فصوموا وافطروا ، وقوموا وناموا ، فانى أقوم وأنام ، وأصوم وأفطر ، وآكل اللحم والدسم ، وآتى النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى . ثم خطب فقال :

مابال أقوام حرموا الطعام والطيب والنوم وشهوات الدنيا ، أما انى لست آمركم أن تكونوا قسيسين ورهباناً فإنه ليس فى دينى ترك اللحم ولا اتخاذ الصوامع ، فإن رياضة أمتى الصوم ، ورهبانيتهم الجهاد ، اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وحجوا ، واعتمروا ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وصوموا رمضان واستقيموا يستقم لكم أمركم ، فإنما هلك من كان قبلكم بالتشديد ، شددوا فشدد الله عليهم .